كيف ساءت الأمور في العالم الإسلامي؟

ترجمة أ. نادر عمران

من شوارع طرابلس المُدمّرة إلى أزقة حلب المُدمّرة، ومن معاقل الطائفية في بغداد إلى أفق غزة المُنهار، تتجلى صورة شائعة — صورة أمم مُمزّقة، ومجتمعات مُجوّفة، ومستقبل مُسروق.

كثيرًا ما تُصادف أشخاصًا ينظرون باحتقار إلى العالم الإسلامي، مُشيرين إلى الفوضى، والجماعات الإرهابية المُسلّحة، وحكم الميليشيات، والديكتاتورية، ليستنتجوا أن هناك خطأ جوهريًا في المسلمين ودينهم. بينما يتبنى آخرون وجهة نظر مُعاكسة، مُجادلين بأن اضطرابات العالم الإسلامي الحالية تُعزى في جزء كبير منها إلى تدخلات الغرب المُتكررة ومظالمه التاريخية. كلا الرأيين يُقدّمان حقائق جزئية، لكنهما يُغفلان الحقيقة الأوسع: أن جزءًا كبيرًا من العالم الإسلامي، وخاصة في غرب آسيا، مُدمّر. الأسباب مُعقّدة ومتعددة الطبقات، لكن الأدلة لا يُمكن إنكارها.

من شوارع طرابلس المُدمّرة إلى أزقة حلب المُدمّرة، ومن معاقل الطائفية في بغداد إلى أفق غزة المُنهار، تتجلى صورة مشتركة — صورة لأمم مُمزّقة، ومجتمعات مُجوّفة، ومستقبل مُسروق. هذا الدمار ليس طبيعيًا ولا حتميًا. إنه النتيجة التراكمية لعقود من الحرب، والتدخلات الأجنبية الانتهازية، والصراعات بالوكالة، والأنظمة القمعية، والإرث الاستعماري. وفي كل هذا، فإن الناس العاديين، المُهجّرين، والمُحبطين، والمُهمّشين، هم أكثر من يُعاني.

توابع الإمبراطورية

لا يتعلق الأمر بالدفاع عن المُستبدين أو تبرئة المُتطرفين. إنه نداء من أجل الاتساق والعدالة والذاكرة. إنه دعوة لفهم كيف حوّل التدخل التاريخي والنفاق السياسي والغضب الأخلاقي الانتقائي إحدى أغنى مناطق العالم ثقافيًا إلى ساحة معركة دائمة. إن قصة فوضى العالم الإسلامي لا تتعلق بالدين أو الحكم فحسب. يتعلق الأمر بتداعيات الإمبراطورية، واستغلال النفط والأيديولوجيا، ونظام عالمي خذل الملايين.

في عشرينيات القرن الماضي، قال ونستون تشرشل مازحًا إنه لا يؤيد السماح "للقبائل العربية" بالسيطرة على شؤونها في فلسطين. لم يكن هذا الازدراء

الإمبراطوري مجرد رأي شخصي، بل كان سياسة. بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، تقاسمت بريطانيا وفرنسا غرب آسيا من خلال اتفاقية سايكس بيكو، ورسمتا حدودًا تعسفية، ونصّبتا حكامًا موالين لهما. لم تُبنَ هذه "الدول القومية" الجديدة مع مراعاة الواقع المحلي، بل صُممت لخدمة المصالح الأوروبية — التمركز الاستراتيجي، وأنابيب النفط، والسيطرة على طرق التجارة.

مهد هذا العصر من الدول المصنّعة والمجتمعات المُتلاعب بها الطريق لعدم الاستقرار في المستقبل. سوريا والعراق ولبنان والأردن هي نتاجٌ لخططٍ إمبريالية، وليست نتاج بناء أممٍ عضوي. ومع انهيار الأنظمة وتضارب الهويات، اتسعت هذه الشقوق. ربما غادر الغرب المنطقة رسميًا في منتصف القرن العشرين، لكن إرثه لم يبقَ. بل ظلّ غرب آسيا غارقًا في صدمات ما بعد الاستعمار، وتحالفات الحرب الباردة، والتبعية الاقتصادية.

بحر من الخراب

لنأخذ ليبيا مثالًا. حكمها معمر القذافي لأكثر من أربعة عقود بقبضة من حديد. كان طاغية، لكنه وفّر أيضًا تعليمًا ورعاية صحية مجانية واستقرارًا نسبيًا. أطاح به تدخل حلف شمال الأطلسي (الناتو) عام ٢٠١١، تحت ستار الحماية الإنسانية، لكنه لم يُقدّم أي خطة لما سيأتي لاحقًا. انحدرت ليبيا إلى الفوضى، حيث تقاسمت الميليشيات المتنافسة البلاد. غمرت الأسلحة المنهوبة من الترسانات الليبية مالي وسوريا، مؤججة حروبًا أخرى. لم يكن سقوط القذافي ميلاد الديمقراطية، بل كان بداية تفكك دموي طويل.

يُقدّم العراق مثالًا أوضح. أدى الغزو الأمريكي للعراق عام 2003، المبني على مزاعم كاذبة بامتلاك أسلحة دمار شامل، إلى تفكيك ليس فقط نظام صدام حسين، بل أيضًا هيكل الدولة البعثية (الحزبية) بأكمله. أدى برنامج اجتثاث البعث إلى تطهير آلاف الموظفين المدنيين والعسكريين، مما خلق فراغًا سرعان ما ملأته الميليشيات الطائفية، وفي النهاية تنظيم الدولة الإسلامية المروع والمتعطش للدماء. تحول العراق من ديكتاتورية إلى ديمقراطية فاشلة تطاردها السيارات المفخخة والاغتيالات. كان العراق مهدًا للحضارة، وهو الآن يكافح للحفاظ على نوره.

أصبحت سوريا أيضًا ساحة معركة للطموحات العالمية. ما بدأ كاحتجاجات سلمية عام 2011 سرعان ما تحول إلى حرب أهلية شاملة، اجتذبت روسيا والولايات المتحدة وإيران وتركيا وإسرائيل وعددًا لا يحصى من الجهات الفاعلة غير الحكومية. في حين أن وحشية الأسد لا يمكن إنكارها، فإن الضرر الذي ألحقته الأجندات الخارجية المتنافسة لا يمكن إنكاره أيضًا. نزح أكثر من نصف سكان سوريا. أصبحت مدن مثل حلب والرقة أطلالًا حديثة.

كانت أفغانستان مسرحًا للغزو والحرب، مما أدى إلى انهيار النظام القائم تمامًا. في البداية، غزا الاتحاد السوفيتي الشيوعي البلاد في أواخر السبعينيات. وفي النهاية، أُطيح به بأموال أمريكا وقوتها ومدافعها الرشاشة بعد عقد من سوء الحكم. ثم غزتها قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة عام 2001، مدّعيةً إرساء الاستقرار والديمقراطية. لكن التجربة فشلت فشلاً ذريعًا. عادت حركة طالبان المخلوعة بقوة في عام 2021، مع انسحاب القوات الغربية المخزي. لقد تركوا السكان المحليين، من نساء وأطفال، تحت رحمة حركة طالبان المتطرفة.

هل حان دور إيران الآن؟

وإيران الآن على وشك الانهيار. لقد خضعت لدورات من العزلة، وتخريب العقوبات، والآن، تهديدات صريحة بتغيير النظام. لا تدين حكومتها المتشددة الحالية ببقائها للقمع فحسب، بل أيضًا لقومية محاصرة وُلدت من عقود من الضغوط الخارجية. من انقلاب عام ١٩٥٣ الذي دعمته وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) والذي أطاح برئيس الوزراء مصدق، إلى التوترات النووية الحالية، فإن قصة إيران هي بمثابة تدخل خارجي بقدر ما هي صراع داخلي.

في هذه الأثناء، لا تزال أنظمة مثل تلك الموجودة في المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وقطر تتمتع برعاية غربية. هذه الدول ليست أقل استبدادًا، ولا أكثر ديمقراطية. ومع ذلك، فإن ثروتها وتوافقها مع المصالح الاستراتيجية الغربية يحميها من النقد. يتم التسامح بهدوء مع انتهاكات حقوق الإنسان والرقابة والتطرف الديني الذي ترعاه الدولة. الغرب لا يعارض الديكتاتورية، بل يعارض الديكتاتوريين المتحدين.

لهذه الأخلاق الانتقائية عواقب حقيقية. عندما تعاقب القوى الغربية بعض الأنظمة بينما تحمي أخرى، فإنها تفقد مصداقيتها. والأسوأ من ذلك، أنها تؤجج السخرية والغضب في جميع أنحاء العالم الإسلامي. يرى الشباب النفاق. يرون القنابل التي تُلقى باسم الحرية والصمت الذي يتبعه عندما يسحق الملوك الموالون المعارضة. في هذا الصمت، تتجذر الروايات المتطرفة. لا تنشأ الجماعات الإرهابية من فراغ ثقافي، بل تولد في بيئات يسودها الظلم والإذلال والخيانة.

حتى السودان، الذي غالبًا ما يُغفل عن ذكره في هذه الأحاديث، له قصة مألوفة. ماضيه الاستعماري، حيث حرض البريطانيون الجماعات العرقية ضد

بعضها البعض، مهد الطريق لانقسامات لاحقة. كافحت حكومات ما بعد الاستقلال، المدعومة أو الممنوحة غالبًا من قوى أجنبية، للحفاظ على تماسك مجتمع ممزق. الصراع الداخلي الحالي ليس مجرد صراع على السلطة، بل هو انفجار متأخر لقنبلة استعمارية موقوتة، تفاقمت بفعل التدخلات الحديثة من دول الخليج المتنافسة والغرب، وحتى روسيا.

هدية الحنين

في خضم كل هذا، يدفع الناس العاديون الثمن الباهظ. عائلات نازحة عبر الأجيال. أطفال يكبرون بلا مدارس أو مياه شرب آمنة. أطباء يُجرون عملياتهم على ضوء كشاف في عيادات مؤقتة. فنانون مُكممون. مثقفون منفيون. أصبح الأمل سلعة نادرة. في غزة وسوريا والعراق واليمن، على سبيل المثال لا الحصر، أصبح المستقبل مجرد فكرة.

في بيئة كهذه، قد يبدو الماضي — حتى لو كان تحت حكم الطغاة — مفضلاً بشكلٍ غريب. قل ما شئت عن صدام أو القذافي، فكثيرون في بلادهم يتذكرون النظام والأمن وسهولة التنبؤ بالحياة في ظل حكمهما. هذا الحنين ليس حبًا للاستبداد، بل يأسًا مما تلا ذلك.

ما يحتاجه العالم الإسلامي ليس المزيد من التدخلات، أو المزيد من القنابل، أو المزيد من أوهام تغيير الأنظمة. إنه يحتاج إلى عملٍ مبدئي من المجتمع الدولي. إنه يحتاج إلى استثمار في بناء السلام، والبنية التحتية، والمجتمع المدني المحلي. إنه يحتاج إلى مساحة للتنفس، والتعافي، وإعادة البناء.

الغرب لا يتعلم الدروس

هذه ليست قصيدة للماضي، بل تحذير. إذا استمر التاريخ في تكرار نفسه، فلن تكون غرب آسيا وحدها هي التي تعاني. سينتشر عدم الاستقرار. يفر اللاجئون. تنتشر الأيديولوجيات المتطرفة. وتتآكل الثقة العالمية. يُدفع ثمن التدخل الانتقائي ليس فقط في بغداد أو طرابلس، بل في باريس ولندن ونيويورك أيضًا — غالبًا في قوارب مليئة باللاجئين والمهاجرين. لقد حان الوقت لتجاوز الثنائيات البالية: الغرب مقابل الشرق، الإسلام مقابل الحداثة، الاستقرار مقابل الفوضى. المعركة الحقيقية هي بين النزاهة والنفاق، بين الذاكرة ونسيانها. فقط عندما تلتزم القوى الغربية بالمعايير نفسها التي تفرضها على الآخرين، يمكننا أن نبدأ في تصور مستقبل مختلف للعالم الإسلامي.

فليُكتب هذا المستقبل لا بلغة الغزو أو السيطرة، بل بلغة العدالة والسيادة والكرامة — والأمل في مستقبل أفضل للعالم الإسلامي.

المصدر: https://www.ndtv.com/opinion/syria-to-iraq-to-gaza-how-did-the-muslim-world-go-so-wrong-8714237